جماليات التضاد
في خطبة قطري بن الفجاءة

د. رائدة محمود أخو زهية د. ثناء نجاتي عياش
أستاذ مشارك - بقسم اللغة العربيّة وآدابها
كلية الآداب - الجامعة الهاشميّة
المملكة الأردنيّة الهاشميّة

ورد البحث في ١٥/ ١١/ ١٤٣٣هـ وقُبل للنشر في ٢١/ ٦/ ١٤٣٤هـ

جماليات التضاد
في خطبة قطري بن الفجاءة

د. رائدة محمود أخو زهية د. ثناء نجاتي عياش

ملخص البحث

ينماز التضاد بقدرته على الجمع بين النقيضين، وهذا يسهم في توضيح المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي؛ لأن بضدها تتمايز الأشياء.

ويعنى هذا البحث بإبراز تجليات التضاد كما تجلت في خطبة قطري بن الفجاءة، وذلك ببيان أنواع التضاد التي استعان بها في سبيل إقناع أتباعه، وحثهم على الزهد في الدنيا، والعمل من أجل الآخرة.

ومن أبرز النتائج التي خلص إليها هذا البحث تنوع أنماط التضاد في الخطبة ما بين التضاد الزمني، والتضاد القائم على المفارقة، وعلى اسم المفعول، وعلى أسلوب الشرط، كما وظف التضاد القائم على أسلوب القصر، وإيجاز القصر، وفي هذا دليل على قدرة قطري على استثمار الطاقات التعبيرية للتضاد.

Aesthetics of Opposition in Qatari Ibn Al Fujaa'a speech

Dr. Raeda Aku zhia & Dr. Thanaa Ayash

ABSTRACT

The antagonism has the ability to combine between two extremes, and this contributes to clarify the meaning and implanting it in the mind of the recipient; because contrary could distinct things.

The current research highlights the manifestations of antagonism as reflected in the discourse of Qatari Bin Fujaaa. This is accomplished by stating the types of antagonism he used to convince his followers, urging them to asceticism in the world, and work for the Hereafter.

Among the most prominent findings of this research is the varied pattern between antagonism time, and contrast based on paradox, the name of the effect, and the method of the condition. Also he appointed the antagonism contrast based on the brevity style, and brevity abridgement. This is a proof on Qatari's ability of to invest on the antagonism expressionism potential.

التمهيد

بحث البلاغيون التضاد تحت مسميات عدة: التطبيق والتكافؤ والطباق والمطابقة والمقاسمة، ولئن اختلفت المسميات إلا أنها اتفقت في دلالتها على أن التضاد يقوم على: "الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة"[1]. كما أن الفروق يسيرة بين البلاغيين كما سيتضح من خلال استعراضنا لتطور مسيرة هذا المصطلح، فعلى سبيل المثال سماه ابن المعتز (٢٩٦هـ) "المطابقة" ولم يعرّفه مكتفيا بذكر النماذج الممثلة له[2]، اعتمادا على قدرة المتلقي على إدراك المراد به، وبخاصة أن التعريفات البلاغية لم تكن قد استقرت في عصره.

وعدّ قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) التضاد من نعوت المعاني وسماه التكافؤ: "وهو أن يصف الشاعر شيئا أو يذمه أو يتكلم فيه بمعنى ما، أي معنى كان فيأتي بمعنيين متكافئين، والذي أريد بقولي: "متكافئين" في هذا الموضوع: متقابلين، إما من جهة المضادة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل"[3].

واعترض الآمدي (٣٧٠هـ) على تسمية قدامة بقوله: "فإني لم أكن أحب أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع، وألف فيها إذ قد سبقوا إلى التلقيب وكَفَوْه المؤونة"[4]. وفضّل ابن الأثير (٦٢٢هـ) تسمية هذا الفن بالمقابلة؛ لأن هذا هو الأنسب من حيث المعنى[5].

وحاول ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) التوفيق بين تسميات البلاغيين بتقسيمه المطابقة إلى قسمين: قسم سماه الطباق وهو الذي يأتي بألفاظ الحقيقة، والقسم الثاني: يأتي بألفاظ المجاز وسماه التكافؤ، ومثّل بما رآه مناسبا من الشواهد[6]. أما السكاكي (٦٢٦هـ) والقزويني (٧٣٩هـ) وشراح التلخيص فسموه المطابقة وعدوه من المحسنات المعنوية، واستشهدوا بالأمثلة الدالة عليه[7].

وفعل الفعل نفسه ابن حجة الحموي (٨٣٧هـ) باشتراطه أن تُرشح المطابقة بنوع من أنواع البديع لتزيدها جمالا ورونقا، لأن مجرد الجمع بين المتضادين أمر يسير[٨]. ورد عليه الدكتور أحمد مطلوب شرطه هذا بقوله: "وليس معنى ذلك أن التضاد أو المطابقة حينما تأتي من غير ترشيح تفقد قيمتها بل إن التضاد هو الذي يكسبها قيمة؛ لأنه يؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة"[٩]. وسماه السيوطي (٩١١هـ) "المقاسمة" عندما بين أن الطباق يُسمى أيضا التضاد والمقاسمة والتكافؤ[١٠]. ولم يأت البلاغيون المتأخرون بجديد إلا اشتراط ابن معصوم (١١١٩هـ) "أن يكون المعنيان المجازيان متقابلين أيضا وإلا دخل فيه إيهام الطباق"[١١].

وبعد هذا الطواف بين البلاغيين يتضح لنا أنه لا يوجد فرق كبير بينهم على الرغم من اختلاف المسميات، أو التقسيمات، والمهم في هذا المجال إبراز قيمة التضاد في إثراء النص، وهذا الأمر التفت إليه القاضي الجرجاني (٣٦٦هـ) بقوله: "وأما المطابقة فلها شعب خفية، وفيها مكامن تغمض، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف"[١٢]. وهذا ما سيحاول بحثنا تجليته، ببيان تجليات التضاد في خطبة قطري، الذي أدرك قيمة التضاد في هذا المجال فهو يدرك أنه يخاطب متلقيا قد ينساق وراء مغريات الدنيا (الفانية)، ويغفل عن الآخرة (الباقية)، وسعى بكل ما أوتي من فصاحة في التأثير في متلقيه، متخذاً من التضاد وسيلته للتعبير عما يجول في ذهنه، لأن التضاد يبرز المعنى ويقرره في ذهن المتلقي، "ومتى جاء الجمع بين ضدين فلمعنى آخر لقصد البيان؛ فإن بضدها تتبين الأشياء، ولما تجد النفس في ذكرهما مجموعين من اللذة؛ لأن اللذة في التقاء الضدين... فتتمثل النفس ذلك في القول، والاعتدال في اجتماعهما، فتستطيبه"[١٣].

ومما ساعد قطري على توظيف التضاد للوصول إلى غايته بتشجيع أتباعه على الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، ما عرف عنه من موهبة في الخطابة والشعر، التقى بها مع كثير من فرق الخوارج، التي كان قطري أحد قادتها، والتي اتكأت على الخطابة، كغيرها من الأحزاب، وسيلة أدبية بالغة التأثير في الإقناع العقلي والتأثير العاطفي. وقد شهد للخوارج خصومهم بالفصاحة والقدرة على التأثير في النفوس، فقال فيهم عبيد الله بن زياد: "لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع"[١٤].

خطبة قطري بن الفجاءة

حافظ قطري بن الفجاءة في خطبته على البناء الفني للخطبة الأموية، فاستهلها بحمد الله والثناء عليه، ومهّد لموضوعه الأساس باللازمة المعروفة "أما بعد"، ثم انتقل إلى موضوع الخطبة الأصلي لأنه كما يقول يحيى بن حمزة العلوي: "ينبغي لكل من تصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائما لذلك المقصد دالا عليه"[١٥] فاقتصر على قضية واحدة شغلت شعراء الخوارج وخطباءهم، ولم يتعداها إلى سواها، وهي التحذير من الدنيا، وحث الناس على الإعراض عنها، وتجنب شرورها.

افتتاح الخطبة

افتتح خطبته بالتوكيد للتحذير من الدنيا: (إني أحذركم الدنيا) مستعيناً بالجملة الاسمية والفعلية معاً؛ للإفادة من دلالتهما على الثبات والاستقرار والتجدد والاستمرارية معاً، وكأنه يريد أن يكون هذا التحذير أمراً ثابتاً ومستمراً لا يتوقف، ويتجدد لئلا ينخدع أحد بالدنيا؛ لذا وصفها بـ: (حلوة نضرة، حُفت بالشهوات)، مستوحياً من قوله عليه السلام: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها

فينظر كيف تعملون"[١٦]، وقوله عليه السلام: "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات"[١٧] محافظاً على معنى حديث الرسول-عليه السلام- الأول وسياقه ومفرداته، ناقلاً سياق الحديث الثاني الذي قاله- عليه السلام- في وصف النار إلى وصف الدنيا؛ لأن الطريق إلى النار يكمن في التكالب على الدنيا والغفلة عن الآخرة.

ثم شرع في سرد صفات الدنيا والأسباب التي تجعل الناس يُقبلون عليها فهي كما قال: (وتحببت بالعاجلة، وحُليت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها). ويتضح أنه أضفى على غير العاقل (الدنيا) صفات الكائن الحي، وذلك بتصويرها بإنسان يتقرب ويتودد إلى أهله، وهم يقبلون عليه؛ لأنه يحقق لهم اللذة العاجلة، وكما هو معروف فإن النفس تميل إلى حب العاجل بدليل قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ القيامة: ٢٠، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ الإنسان: ٢٧.

وصور الدنيا كذلك بكائن حي يتزين ويتجمل ليخدع أهله، فخلف هذا المظهر البراق للدنيا يكمن السم القاتل؛ لذا جاء قوله: (تزينت بالغرور) ليكشف عن حقيقة الدنيا، فالغرور هو كل:"ما غرّك من إنسان وشيطان وغيرهما"[١٨]، وفي التنزيل العزيز: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ لقمان: ٣٣. ونتيجة لذلك (لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها)، ومع أنه لا يوجد تضاد حقيقي بين (لا تدوم ولا تؤمن) إلا أن قطريا أوجد بينهما تقابلاً سياقياً؛ لأن المطابقة "نوع من أنواع التضاد"[١٩]. كما أنه جسّد الآمال بالحلي والمجوهرات في قوله (وحليت بالآمال) ليظهر مدى زيف الدنيا، فخلف هذا البهرج اللامع ظاهريا تكمن حقيقة الدنيا المتمثلة في خداعها وتضليلها لأهلها، فكيف يمكن الاطمئنان إليها؟

وتتالت صيغ المبالغة على وزن (فعالة) في وصف قطري للدنيا فهي: (غرارة ضرارة / خوانة غدارة / أكالة غوالة / بدلة نقّالة). ورغم أن كل صفة من الصفات السابقة على حدة توصّف حقيقة الدنيا، إلا أنه آثر الجمع بين كل صفتين معاً زيادة في إبراز سوء الدنيا، كما أن الإيقاع الصوتي الناجم عن اجتماعها معاً يقرع الأذن قرعاً، وكأنه لا يريد للمتلقي أن يغفل عن ضرر الدنيا، وقبل أن يزول وقع الصفة الأولى عن الأذن يأتي مباشرة الوصف التالي وهكذا. وبعد هذا التسارع تخف الحدة قليلاً فيقول: (حائلة زائلة/ نافدة بائدة). جامعاً أيضاً بين كل صفتين معاً، ومعبراً بصيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبات هذه الصفات في الدنيا وعدم تغيرها، والزوال هو القاسم المشترك بين هذه الصفات، ومع أن كل صفة تدل على المعنى المراد إلا أنه أتبعها بوصف آخر، يحمل المعنى نفسه من باب تأكيد فكرته. ولم يكتف بتتالي أربع صفات للدنيا جمع بينها (الزوال) -كما اتضح- بل أتبع ذلك بقوله: (فانية فان مَنْ عليها)؛ ليبين أن الفناء مصير الدنيا، متفقاً في ذلك مع قول عمران بن حطان:

لا يعجز الموت شيء دون خالقه والموت فانٍ إذا ما ناله القدر[٢٠]

ويبدو تأثر كل من قطري وعمران واضحاً بما ورد في قوله تَعَالَىٰ:﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد: ٣٨، وحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم- "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناديا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح"[٢١]، وبذلك فإن الخوارج اتخذوا من فكرة إماتة الموت في الحياة الثانية، التي بينها الحديث الشريف، مبدءًا للدعوة إلى الزهد في الدنيا. ولم يكن الموت مصير الدنيا فقط بل مصير كل من فوقها كما يفهم (من) الدالة على العموم، مستوحياً فكرته السابقة من قوله تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الرحمن: ٢٦.

ولم يصرح قطري بهدفه من سرد هذه المتتاليات من الصفات، وكأنه يريد من المتلقي أن يتوصل بنفسه إلى مراده ليترسخ في ذهنه، ويتعظ قبل فوات الأوان، ويمكن تقدير المحذوف هنا: كيف تحرصون على زائل، أو تتمسكون بزائل؟ وختم حديثه عن صفات الدنيا مستشهداً بقوله تَعَالَىٰ:﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ الكهف: ٤٥ لتأكيد أن الدنيا زائلة فانية.

ومما يثير الدهشة والغرابة أنه على الرغم من إدراك الناس لحقيقة الدنيا كما صورها النص القرآني، وحديث الرسول -عليه السلام- الذي استشهد به في مستهل خطبته، وواقع الحال الذي صوره قطري في خطبته هذه، إلا أنهم يتمسكون بالفاني (الدنيا) ويتركون الدائم (الآخرة)؛ لذا جاءت هذه الخطبة لتذكرهم بما غفلوا عنه، فالإنسان بحاجة من حين لآخر بمن يذكرّه ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥ وهذا هو الهدف العام من هذه الخطبة.

أما العنصر الثاني في الخطبة، والمتعلق بالمتلقي الخاص فهو الذي يهمّ قطري في المقام الأول، إذ وجه خطبته هذه لطائفة الأزارقة الذين قام بشحنهم بهذه الخطبة لينفرهم من الدنيا، ويزهدهم بها حتى إذا ما قابلوا أعداءهم قابلوهم بكل ما لديهم من قوة وشجاعة وحماس، متحررين من أي أثر للدنيا قد يضعف عزائمهم؛ ولذا لم يذكر إيجابية واحدة للدنيا -كما سيظهر لنا- بل صوّر غدر الدنيا وعطاءها المتبدل؛ فهي وإن أحسنت إلى حين فسرعان ما تسلب إحسانها وتقلبه إساءة. ولعل هذا يفسر لنا سر حماسة الخوارج وشجاعتهم منقطعة النظير في المعارك، ودفاعهم عن معتقداتهم بغض النظر عن رأينا في صحة معتقداتهم.

أنواع التضاد في الخطبة:

التضاد الزمني:

يقوم التضاد المبني على التقابل الزمني على الجمع بين لقطتين متباعدتين زمنيا،كما في اختياره لقطة من الزمن الحاضر ثم لقطة تقابلها من الزمن الماضي، وتمثل هذا النمط في قوله: (ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً، وأوضح آثاراً، وأعدّ عديدا، وأكثف جنوداً، وأعند عنودا). وتتكون هذه المقابلة من طرفين أحدهما مذكور في النص يصور قوة الأقوام السابقة ومنعتها، والآخر محذوف، لم يذكر في النص ولكنه حاضر بدلالته ويمكن للمتلقي تقديره بكل يسر، وبؤرة هذه المقابلة اسم التفضيل (أفعل) الذي كشف عن مواصفات فئتين متباعدتين زمنياً جمع بينهما الإقبال على الدنيا. وكل اسم تفضيل مذكور في النص يحمل في طياته الصورة المكافئة للمذكور فمثلاً: أطول منكم أعماراً يقابلها أنتم أقصر أعماراً، وهذا الأمر ينسحب على كل المقابلات الواردة في النص السابق، ولا سيما أن التضاد كما ورد في تعريفات الجرجاني "وهو أن يجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل"[٢٣]. وأطال قطري في ذكر تفاصيل القوة المادية للأقوام السابقة، وأوجز في بيان عاقبتهم، مكتفيا بإيجاز القصر في قوله (وظعنوا عنها بالكره والصغار) الذي أغنى عن ذكر التفاصيل. والجدول الآتي يوضح طرفي التضاد في النص السابق:

الطرف المذكور (الزمن الماضي)	الطرف المحذوف (الزمن الحاضر)
أطول أعمارا	أقصر أعمارا
أوضح آثارا	أبهم آثارا
أكثف جنودا	أقل جنودا

ويتضح من تصويره السابق أن مَنْ كانوا في الزمن الماضي قد توافر لهم من الإمكانات ما لم يتوافر للذين أتوا من بعدهم، ومع ذلك لم تغنهم هذه الإمكانات شيئا، بدليل أن مَنْ جاء بعدهم سكنوا في مساكنهم التي دلت على قوتهم المادية والتي لم تغنهم شيئا؛ لذا افتتح كلامه بالاستفهام التقريري (ألستم)؟ ومراده من تصويره السابق بيان أن الذي جمع بين هاتين الفئتين على الرغم من التباعد الزمني بينهما هو حب الدنيا والسعي لها، والتقوا كذلك في النتيجة (الهلاك) التي تحققت في السابقين، أما المعاصرون فيخشى أن يكون مصيرهم كمصير من سبق إن لم يأخذوا العبرة مما حدث مع غيرهم، و لا سيما أن المعاصرين أحسن حظا ممن سبق؛ لأنه أُتيحت لهم الفرصة للاطلاع على هلاك السابقين، فلعلهم يستدركون ما فاتهم، وهذا هو هدفه الذي لم يعلن عنه صراحة اعتمادا على قدرة المتلقي على إدراكه.

أما قوله: (تعبدوا الدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار). فيكشف عن شدة إقبالهم على الدنيا وانكبابهم عليها، بحيث باتوا عبيدا لها، وباتت شغلهم الشاغل، وأكّد هذا المعنى بجمعه بين الفعل ومصدره (تعبدوا تعبد) في سياق واحد.

ويقوم التضاد هنا بين شدة الإقبال على الدنيا، وشدة إيذائها لمن يُقبل عليها، فهم- كما صوّر- أقبلوا على الدنيا بكل جوارحهم، وكان من المتوقع أن تُقبل هي الأخرى عليهم، لكن الدنيا لم تكتفِ بإدبارها عنهم، بل أتبعته بإيذائهم، كما يتضح من قوله: (فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب، بل قد أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعقرتهم بالمصائب).

وتتالت التشبيهات في قوله السابق؛ لتبرز قسوة الدنيا على من يلوذ بها، وإهلاكها لمن يُقبل عليها، مشبها نوائب الدنيا بالمعاول التي تهدم البناء حتى لا يبقى منه شيء، وشبّه مصائب الدنيا بالأداة التي تذبح. وجمع بين (أرهقت وضعضعت وعقرت) للدلالة على شدة إيذاء ويلات الدنيا، وجاءت صيغ الجمع (الفوداح والنوائب والمصائب) للدلالة على كثرة ويلات الدنيا وتتابعها، وكلها تتجه نحو هدف واحد هو الإنسان، وكان من المنتظر أن يدفعه هذا الأمر إلى الزهد بالدنيا وعدم التكالب عليها، ولكن هذا لم يحدث لأن الدنيا -كما صوّر- في مستهل خطبته: (تحببت بالعاجلة، وحُليت بالآمال، وتزينت بالغرور).

ورسم قطري صورة مليئة بالمتضادات للموت والقبور وما فيها من وحشة تلتقي في دلالتها على الصمت الموحش، وتوقُف مظاهر الحياة التي كانت تضج بها الدنيا، كما يتضح من قوله: (حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأُنزلوا فيها فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الضريح أجفان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران). وتتالت الصور الدالة على ذلك، فهو شبّه التراب بالأكفان، وذلك للدلالة على أن من يغادر الدنيا لا يأخذ معه شيئا منها، وهو الذي قضى حياته في التكالب عليها، على الرغم من معرفته أنه سيترك كل ذلك وراءه، ويعود كما بدأ إلى التراب.

ويحتمل قوله (الرفات جيران) المعنى الحقيقي، وفي هذا إشارة إلى تحلل الأجساد بعد الممات، ويحتمل كذلك المعنى المجازي، فيكون مجازا مرسلا علاقته اعتبار ما سيكون، فالحي اليوم مصيره سيؤول إلى مجرد عظام بالية، ويلتقي المعنيان الحقيقي والمجازي في الدلالة على الفناء المحتوم، وهدفه تذكير الإنسان بما يغفل عنه، ودلّ على ذلك بقوله: (فهم جيرة لا يجيبون داعيا).

ويبرز التضاد من خلال تسليطه الضوء على مظاهر توقف الحياة في القبور، من مثل قوله: (جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد). فهذه الصور الظاهرة (المذكورة) في النص يقابلها الصور المحذوفة- الحاضرة في دلالتها- صور من الزمن الحاضر وما فيه من حركة وصخب وحيوية، ولكن كل هذا يقابله الخواء المبني على التضاد ما بين:

جميع وهم آحاد	لأن	كل إنسان وعمله فقط
جيران وهم أبعاد	لأنهم	يتجاورون ولا يتحاورون

وانتقد زعيم الأزارقة سلوك الذين يُقبلون على الدنيا فهم كما صوّر: (استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة). شأنهم في هذا المجال شأن بني إسرائيل الذين قال فيهم سبحانه وتعَالَىٰ:﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾ البقرة: ٦١. فهم تركوا الأحسن واختاروا الأسوأ.

فماذا كانت العاقبة؟ (فارقوها كما جاءوها، حفاة عراة فرادى)، مستمدا قوله السابق من قوله تعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ الأنعام: ٩٤. وقوله عليه السلام: "يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)"[٢٣].

وتمثل النوع الثالث من أنماط توظيفه للزمن في لقطة من المستقبل البعيد، والمشهد الغيبي مما سيحدث في يوم القيامة في قوله: (مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المُطَّلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل). مكتفيا بإيجاز القصر (هول المطلع) لتصوير مشهد القيامة في خطبته. وهذا أمر يغفل عنه الإنسان في غمرة انشغاله بالدنيا

وحرصه عليها. وختم هذا المشهد الغيبي بقوله تَعَالَىٰ:﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ النجم: ٣١، المبني على التضاد أيضا.

التضاد المبني على المفارقة:

تهدف المفارقة فيما تهدف إليه إلى إبراز التناقضات في الحياة، فهي "تمنحنا فرصة للتأمل فيما تقع عليه أعيننا"[٢٤]؛ لأن الجمع بين المتضادات في سياق واحد يظهر حسن أحدهما بإزاء الآخر، وقبح الآخر بإزاء حسن الآخر[٢٥]، وهي تتحقق- كما يقول كيركيجارد- على يد الفنان الذي يجري في دمه الإحساس العميق بالخدعة الكبرى للحياة[٢٦]، لذا سعى قطري بكل ما أوتي من فصاحة إلى تصوير الدنيا تُعرض عمن يُقبل عليها، وتسيء إلى من يحسن الظن بها.

وترتكز المفارقة على مجموعة من العناصر، منها وجود الضحية[٢٧] التي تمثلت في الخطبة في الإنسان المنخدع بالدنيا والراكن إليها؛ لذا وجّه قطري كلامه إليه مباشرة، لعله ينجح في نقل قناعاته، التي استقرت في فكره ووجدانه، عن الدنيا التي لا تستحق الركون إليها – كما اتضح فيما مضى وسيتضح فيما سيأتي – إلى الإنسان المنخدع بها، لعله يسارع إلى البحث عن البديل الأفضل، الذي يكمن من وجهة نظر قطري في الإعراض عن الدنيا، ولكنه لم يفصح عن هذا البديل، ليترك للمتلقي إدراكه بما تركه له من إشارات في نصه؛ فـ" لا بد أن يكون هذا البديل متصلا بإشارات لغوية في النص من ناحية، ومؤتلفا مع وجهة نظر صانع المفارقة من الناحية الفكرية والعقائدية من جهة أخرى"[٢٨]، لعلنا بهذا نفسر سرّ رسمه صورة قاتمة للدنيا في خطبته، ولمن يركن إليها.

وظهر التضاد المبني على المفارقة في قوله: (تنكرها لمن دان لـه، وآثرهـا وأخلـد إليها، حين ظعنوا عنها لفـراق الأبـد إلى آخـر المـسند). وتـضمن قولـه الـسابق عـدة مفارقات، فالمتوقع أن تُقبل الدنيا على مَن يُقبل عليهـا، لا أن تتنكـر لـه كمـا صـوّر، وهي بتنكرها تتضاد مع المتوقع (إقبالها على مَن يُقبل عليها) وجاء كـسر التوقـع هنـا الناتج عن التضاد السياقي بين (تنكر/ دان) وإلا فهذان اللفظان لا يتضادان معجميا، لكنه جمع بينهما ليصور خداع الدنيا لأهلها، ويقوم التضاد على ازدياد تنكر الدنيا لمـن يُقبل عليها، فهي تطمعه وتجعله يزداد إقبالا عليها، وكلما ازداد إقبالا ازدادت تنكـرا، فالعلاقة عكسية بينهما.

وقابل بين شدة إقبال الإنسان على الدنيا وإخلاصه لهـا، وبـين شـدة إعراضـها عنه، كما يتضح من الجدول الآتي:

دان عليها	زودته الشقاء
آثرها	أحلّته الضنك
أخلد إليها	أعقبته الندامة
أقبل عليها	تنكرها له
تمسك بها	رحيله عنها

ونظرة في الجدول السابق تبين أن الدنيا لا تكتفي بالتنكر لمن يُقبـل عليهـا، بـل تزداد عنه إعراضا حتى تنتهي به إلى الرحيل عنها مُكرهـا، وتكمـن المفارقـة في سـعي الإنسان إليها برغم ما تفعله به، وفي كلما ازداد منها قربا ازدادت منه بُعـدا، والمفارقـة الثانية، على الرغم من إدراك الناس لهـذه الـصفة في الـدنيا إلا أنهـم يـزدادون إقبـالا عليها وتمسكا بها، وهو يحاول التذكير بما يغفل عنه النـاس، لعلـه يقـودهم إلى النجـاة قبل فوات الأوان.

وكما تتالت المفردات الدالة على إقبال الإنسان على الدنيا، تتالت المفردات الدالة على إعراضها عنه، وكشف أسلوب القصر في قوله: (هل زودتهم إلا الشقاء وأحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة)، عن حقيقة الدنيا هذا من جهة، ومن جهة أخرى صوّر مقدار خيبة الأمل والخسارة التي تحيق بمن يُقبل على الدنيا، فعندما نسمع لأول وهلة (الدنيا زودت) نستبشر خيرا ثم تأتي النتيجة الصادمة بأن زاد الدنيا / الشقاء، والأمر نفسه يقال في (نورت الدنيا) وإذا بالمفاجأة بدلا من النور المتوقع تأتي الظلمة، والمفارقة في أن زاد الدنيا (الشقاء)، ونورها وعاقبتها (الندامة)، ومع ذلك يزداد الإقبال عليها. "فالمفارقة أسلوب مثير لأنه في أخص خصائصه ناتج عن تصادم داخل النص بين ما يتوقع وما يحدث واقعا"[٢٩].

واتكأ في قوله السابق على المفارقة المبنية على القصر؛ لأنه واثق من صحة كلامه، وبالنظر في التركيب: نورت الظلمة ومقابله هل نورت إلا الظلمة. يتضح أن التركيب الأول يخلو من التوكيد الذي تضمنه التركيب الثاني، كما أن التركيب الثاني يحصر إنارة الدنيا بالظلمة، بينما لا يحمل التركيب الأول هذه الدلالة، فقد ينور الظلمة وغيرها؛ لذا آثر اختيار التركيب الثاني على التركيب الأول، ولولا المفارقة لما أمكننا فهم التنوير بالظلمة، وهذا مظهر من مظاهر خداع الدنيا لأهلها؛ لذا جاء الاستفهام في قوله: (فهذه تؤثرون أم عليها تحرصون، أم إليها تطمئنون؟) من باب التقريع والتوبيخ لمن يدرك هذه الحقيقة، ومع ذلك يزداد تمسكا بالدنيا، فهو يريد بقوله هذا خلخلة ما استقرّ في وجدان المتلقي من الإقبال على الدنيا، والركون إليها، وهذا ما حاول جاهدا تحقيقه في خطبته من مبتدئها إلى منتاها. وختم هذا المقطع من خطبته بقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٥ - ١٦ .

التضاد المبني على كم التكثيرية وقد التحقيقية:

أراد قطري أن يحذر مخاطبيه من اتباع الدنيا الغرور، ومن الشقاء الذي قد ينزل بهم، فلجأ إلى تذكيرهم بمن اغتروا في الدنيا، وكانوا كثراً، كما يفهم من توظيفه لكم الخبرية التي جاءت بمعنى (كثير) في قوله: (كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي اختيال قد خدعته، وكم ذي أبهة فيها قد صيرته حقيرا، وذي نخوة قد ردته ذليلا، وكم من ذي تاج قد كبّته لليدين والفم)؛ فالمغترون في الدنيا لن يلقوا منها إلا الخداع والغدر، ويبدو أن قطري خشي ألا يقتنع مخاطبوه بقوله رغم ما ذكره عن تجارب الآخرين مع هذه الدنيا، فأراد أن يؤكد لهم ما قال، ويثبت لهم حقيقة الدنيا الغرور التي لا تتبدل بتبدل الزمان وأهله، فاستخدم قد والفعل الماضي في قوله السابق.

ويتضمن كل تركيب في قول قطري السابق صورتين متضادتين: صورة مشرقة وأخرى مظلمة، وهذا التباين بينهما يبرز عمق الهوة بين الحالين، وشتان بين الصورتين: صورة الإنسان المطمئن إلى الدنيا، والمقبل عليها، أما الثانية فهي الصورة المضادة لها، صورة الفاجعة التي تحلّ بالإنسان من حيث لا يتوقع، بل من حيث توقع الأمن والطمأنينة؛ ولذلك يكون الإحساس بالخسارة أفدح، والألم أشد؛ لأن المضرة تأتي من حيث لا يتوقع الإنسان؛ لذا تتالت الصور المعبرة عن هذا المعنى. فمن يثق بالدنيا وهي تفجعه بويلاتها! وشبّه الدنيا بكائن حي يصرع من يطمئن إليه، وفي هذا إبراز لقبحها وخداعها، فهي ليست أهلا للثقة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يصور سوء اختيار الإنسان الذي ينحاز إلى الدنيا، ويغفل عن الآخرة.

وعلى الرغم من أنه لا يوجد تضاد معجمي بين طرفي المقابلة في التراكيب السابقة، فإنه نجح في إيجاد تضاد سياقي يجمع بينهما، فهو صوّر الدنيا تنقل ذا الأبهة من أحسن حال إلى أسوأ حال، بدليل أنها تسلبه كل مظاهر أبهته وسلطانه، ويصبح ذليلا حقيرا.

واتكأ على الكناية وإيجاز القصر معا في قوله: (وكم من ذي تاج قد كبّته لليدين والفم)؛ ليصور سوء حال صاحب التاج الذي كنّى به عن صاحب السلطة، وعمم السلطة ولم يحصرها في منصب واحد؛ لتشمل كل أنواع السلطة في الدنيا، فبعد كل هذا العلو إذا به يعبر بصورة حسية– بصرية- حركية؛ تصف سوء حاله بعد أن فقد سلطانه، صورة الساقط على يديه، صورة تختزل كل مظاهر الذل الذي علاه بعد أن صوّر زوال مظاهر النعيم التي تمتع بها إلى حين؛ لتبقى هذه الصورة ماثلة في الأذهان لأخذ العبرة والعظة منها.

والتقابل بين أعلى شيء التاج (الرأس) وأخفض شيء (الكب على اليدين) والمسافة بينهما تبرز مقدار التباين بين الحالين، والفاعل في الحالين هو هو لا يتغير (الدنيا) فهي ترفع مؤقتا ثم سرعان ما تهوي بمن رفعته، دليل آخر على خداعها وتضليلها، إذن الواجب عدم الركون إليها. ولجأ قطري إلى الكناية في قوله السابق؛ إدراكا منه أن الكناية تتضمن الدليل والبرهان على صحتها وثبوتها، وهذا أبلغ من إثباتها بنفسها؛ لأنها تكون عندئذ بمنزلة دعوى مجردة عن البرهان[٣٠].

التضاد المبني على أسلوب القصر:

يسهم أسلوب القصر في تقرير الكلام وترسيخه في ذهن المتلقي؛ لما في هذا التركيب من قوة في التعبير ناتجة عن دلالته على التوكيد؛ لأنه يقوم على "تخصيص

شيء بشيء وحصره فيه"[٣١]؛ لذا اعتمد قطري على هذا الأسلوب وبخاصة عن طريق (النفي وإلا) في عدة مواضع من خطبته، ومن أمثلة ذلك قوله: (مع أن امرأ لم يكن في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة / ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا / لم تطله غيبة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء/ ولم يمسِ امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف). والشيء المشترك بين كل هذه المتضادات: أن نعيم الدنيا لا يدوم؛ لأنها تُتْبع المسرة بالحسرة، إذن الدنيا لا يُركن إليها.

ولم يأت اعتماده على تركيب (ما) و(إلا) عبثا، فهو يدرك أنه يخاطب متلقيا يُقبل على الدنيا ويغفل عن الآخرة؛ لذا شبهه بالجاهل للأمر أو المنكر له، فعلا لا قولا، وخاطبه بهذا الأسلوب ليزيل الغشاوة عن عينيه، ويبّصره بما يتنظره.

كما يبرز تركيب (ما وإلا المبني على التضاد) الترابط بين سرور الدنيا وإساءتها، فسرورها لا يدوم ولا بد أن تعقبه بالحزن والألم، كما أنها لا تكتفي بإساءة واحدة، وإنما تتبعها إساءات كثيرة، ونظرة في واقع الحال– كما سرده– تؤكد صحة وجهة نظره.

واستمد التضاد في قوله: (لم تطله غيبة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء)، من عالم الطبيعة، وبؤرة التضاد هنا بين تطل- هطلت، بتشبيهه سرور الدنيا بالدفعة من المطر الخفيف (الطل) أما إساءتها فشبهها بالمطر الشديد (الهطل) وفي هذا كناية عن أن إساءة الدنيا أكثر من مسرتها، وهذا المعنى كثيرا ما طرقه الشعراء في قصائدهم، كما في قول عنترة:

هَل عيشَةٌ طابَت لَنا إِلّا وَقَد أَبلى الزَمانُ قَديمَها وَجَديدَها[٣٢]

وعبر لبيد عن تقلب الزمان قائلا:

لا تَفــرَحَنَّ فَكُــلُّ وال يُعــزَلُ وَكَمـا عُزِلـتَ فَعَـن قَريـبٍ تُقتَـلُ
وَكَـذا الزَمـانُ بِمـا يَـسُرُّكَ تـارَةً وَبِمـا يَـسوءُكَ تـارَةً يَتَنَقَّـلُ

وعمّق التضاد بين الأمرين (سرور الدنيا وإساءتها) تعبيره بالفعل المضارع الدال على التجدد والتقلب المتغير غير الدائم (سرور الدنيا)، أما الأمر الثابت الذي لا يتغير (إساءة الدنيا) فعبر عنه بالفعل الماضي لدلالته على الثبات والاستقرار، فإساءة الدنيا أمر متحقق لا محالة.

وأما قوله: (ولم يمسِ امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف). فاستمده من عالم الطيور متكئا على الاستعارة، وذلك بتشبيهه نعيم الدنيا - المتمثل هنا في الإحساس بالأمن - بالطائر، وتشبيهه الخوف، الناتج عن سلب الدنيا للأمان، بالقوادم* التي كنى بها هنا عن سرعة استعداد الإنسان للهرب خوفاً من حلول الخوف والحزن محل الأمن والنعيم. وعبّر قطري عن الأمن والخوف بالفعلين المضارع والماضي معا (يمسي/ أصبح) ليدل الأول (يمسي) على المتغير، وغير الدائم (أمن الدنيا) ويدل الثاني (أصبح) على الثابت والغالب (حلول الخوف محل الأمن)، وبما أن مساحة الخوف في الحياة الدنيا أكثر من مساحة الأمن؛ فقد عبّر بصيغة المفرد (جناح) عن القليل (سرور الدنيا)، وبصيغة الجمع (قوادم) عن الكثير (إساءة الدنيا).

وبما أنه يسعى إلى تقرير هذا المعنى في ذهن المتلقي تحدث عنه ثانية في قوله: (مَنْ أقلّ منها استكثر مما يؤمّنه، ومَنْ استكثر منها استكثر مما يوبقه، ويطيل حزنه). فهو يقابل بين حالين: حال مَن يزهد في الدنيا وعاقبته النجاة والفوز، وحال من يُقبل عليها وعاقبته الخسارة والهلاك، ولو دققنا في عاقبة كل اختيار يتضح أنه لم يكتفِ بالتضاد بين (يؤمّن ويوبق)، بل زاد على ذلك بقوله (ويطيل حزنه) فالدنيا لا تكتفي

بإساءة واحدة، وإنما تتبعها بإساءات كثيرة، "فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها"[٣٣]. وتضمن قوله السابق مقابلة جزئية بين (أقل واستكثر) في طرفها الأول، وهذا عمّق من دلالة المقابلة الكلية الناتجة عن الطرفين: الأول والثاني، ولعل من المفارقة أن أقل مع استكثر في الطرف الأول تؤدي إلى النجاة، أما العلاقة في الطرف الثاني بين استكثر واستكثر تؤدي إلى الهلاك، وكأنه بهذا يترك المجال للمتلقي أن يقارن بين عاقبة اختيار كل فريق، فهما اختارا بمحض إرادتهما الإقبال على الدنيا أو الزهد بها، وكشف التضاد كذلك عن البون الشاسع بين الاختيارين.

ويمكننا القول إنه استوحى مضمون التضاد في نصه السابق من قوله عليه السلام:" مَن كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له"[٣٤].

التضاد المبني على أسلوب الشرط:

يتميز أسلوب الشرط بما فيه من ترابط بين فعل الشرط وجوابه؛ إذ لا يمكن لجواب الشرط أن يتحقق لولا تحقق فعل الشرط، ولجأ قطري إلى هذا الأسلوب لبيان تقلّب الدنيا، وعدم دوامها على حال كما في قوله: (وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمرّ عليه منها جانب وأوبى، وإن آتت امرءا من غضارتها ورفاهتها نعما، أرهقته من نوائبها نقما)، واستعان بالاستعارة- المبنية على التضاد- وذلك بتشبيهه نعيم الدنيا بالماء العذب الحلو الصافي، لكن بما أن هذا الصفاء لا يدوم؛ لذا شبّه سلب هذا النعيم بالماء المر الوخيم غير صالح للشرب.

والتضاد بين (آتت/ أرهقته) يبين أن شقاء الدنيا أكثر من نعيمها؛ لأن الفعل (آتت) يوحي بالهدوء والرقة بينما الفعل (أرهقته) يحمل في طياته ظلالا من الألم

والمعاناة، فالدنيا تعطي الأقل، وتسلب الأكثر، وهذا هو المعنى الذي حرص قطري على تقريره في ذهن المتلقي في غير موضع في خطبته.

ومما يدل على حرصه على الإيقاع الموسيقي قوله (رفاهتها) بدلا من (رفاهيتها) لتتناسب إيقاعيا مع غضارتها، وكذلك تسهيله الهمزة في (أوبى) لتتناسب مع (احلولى). كما أن ترتيبه للأفعال (اعذوذب واحلولى/ وأمرّ وأوبى) يؤكد هذا الأمر؛ فهو جعل (أمرّ) مقابلا لـ(اعذوذب)، و(أوبى) مقابلا لـ(احلولى)، هذا من حيث الترتيب، أما من حيث المعنى والدلالة فإن (أمرّ) يقابل (احلولى)، و(اعذوذب) يقابل (أوبى)، كما أنه قابل سياقيا بين (اعذوذب وأوبى) لأنه لا يوجد تضاد حقيقي بينهما.

واتكأ على إيهام التضاد بين (منتصرة وخاذلة) في قوله: (وحري إذا أضحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكرة). فالمقابل الحقيقي للنصر الهزيمة لا الخذلان، ولكنه جعل الخذلان مقابلا للنصر؛ لأن الخذلان يتضمن ظلالا سلبية لا تتضمنها كلمة الهزيمة؛ فالخذلان يوحي بخيبة الأمل التي يشعر بها من يُخذَل من حيث لا يتوقع. كما أن الفعلين (أضحت وتمسي) يصوران سرعة تقلب الدنيا وتنكرها لأهلها، ويوحيان كذلك بقصر فترة نعيم الدنيا، الذي يدوم ما بين فترة الضحى إلى المساء، إذن الدنيا لا تسلب بمقدار ما تحسن بل تخذل وتتنكر.

التضاد المبني على اسم المفعول:

لجأ قطري إلى التضاد المبني على اسم المفعول في قوله: (مليكها مسلوب/ عزيزها مغلوب وسليمها منكوب/ جامعها محروب) مستغلاً صيغة اسم المفعول للتركيز على معاني السلب، والغلبة، والنكبة التي تتصف بها الدنيا، ولتصوير حال

الإنسان الخاضع لها، والمغتر فيها؛ فاسم المفعول يدل على وقوع الحدث، ويصور الذي وقع عليه الفعل دون الاهتمام بالفاعل، وقطري في خطبته لا يهمه الفاعل (الدنيا) المعروف بقدر ما يهمه تصوير الضحية ليقنعها بصدق قوله.

ويجمع بين المتضادات السابقة عدم التصريح بالفاعل بين طرفي المقابلة وهو الدنيا، وقد اكتفى قطري بالإشارة إليها بضميرها في الطرف الأول، وبصيغة اسم المفعول في الطرف الثاني؛ لأن الفاعل (الدنيا) بات معروفا للمتلقي، وهو في الأحوال جميعها نفسه لا يتغير، وإن غاب بلفظه فهو حاضر بفعله ودلالته. ولم يصرح قطري بالفاعل في الطرف الأول ليسلط الضوء على الحدث في الطرف الثاني للمقابلة، وهو على التوالي (مسلوب/ مغلوب/ منكوب/ محروب) فالفكرة تكمن في تصوير سوء حال مَن يُسلب ملكه، ويُسلب ما جمعه، وهكذا، فالمهم هنا أنه فقدَ كل مظاهر قوته وعزته وسلطته. فعزيز اليوم هو ذاته ذليل الغد، والمعافى اليوم هو ذاته مريض الغد، وهكذا.

وتتضمن المتضادات السابقة صورتين: الأولى، صورة الشيء الموجود ويحيط به كل مظاهر قوته وأبهته، والمتمثلة في الطرف الأول من المقابلة (مليكها، عزيزها، سليمها، جامعها)، والصورة الثانية المتضادة معها: صورة الفقد والتلاشي لكل هذه المظاهر، والتي تظهر في الطرف الثاني من المقابلة (مسلوب، مغلوب، منكوب، محروب). واستوحى قطري تصويره السابق من قوله تَعَالَىٰ:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يونس: ٢٤.

ولم يغفل عن الإيقاع الموسيقي في جمعه بين المفردات وترتيبها، مراوحا بين وزني:

فعيل	مفعول
مليك	مسلوب
سليم	منكوب
جامع	محروب

وشذّ (جامع) عن وزن فعيل؛ لأنه لا يستقيم أن يقول (جميع) حفاظا على الوزن.

التضاد المبني على إيجاز القِصَر:

تكمن قيمة إيجاز القِصَر في قدرته على تكثيف المعنى لأنه يقوم على "تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني"[٣٥] واتضح هذا الأمر جليا في قوله في وصف الدنيا: (سلطانها دول/ عيشها رونق/ عيشها أجاج وحلوها صبر/ غذاؤها سمام/ أسبابها رمام). واشتمل قوله (سلطانها دول) على كل مظاهر تقلُّب الدنيا، فخلف هذه العبارة الموجزة تكمن تفاصيل كثيرة يمكن للمتلقي فهمها واستنباطها.

والتقت المتضادات في النص السابق في الكشف عن جانب من جوانب الحياة الدنيا، وهو قدرتها على الخداع والتضليل، وتتالت التشبيهات الدالة على ذلك، فهو شبّه نعيم الدنيا (الفاني) بالماء الذي يبدو في ظاهره عذبا، وهو في الحقيقة أُجَاج، مستوحيا تصويره السابق من قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاطر: ١٢. واستمد التشبيه في قوله (حلوها صبر) من عالم النبات، بتشبيهه نعيم الدنيا (الزائل) الذي تعطيه الدنيا لمن يُقبل عليها بالنبات المر الطعم، فحلوها في ظاهره خير وفي باطنه شر.

وتابع رسمه للصور المنفرّة للدنيا، وذلك بتشبيهه لنعيمها المؤقت في قوله (غذاؤها سمام) بالسم الذي سرعان ما يقتل شاربه؛ ولذا شبّه الركون إلى الدنيا في قوله (أسبابها رمام) بمن يصعد على حبال بالية سرعان ما ستنقطع، ويهلك الصاعد فوقها. وعلى الرغم من حرصه على المعنى إلا أنه لم يغفل عن الإيقاع الموسيقي في قوله: (غذاؤها سمام، أسبابها رمام)، ولولا ذلك لما قال سمام.

وبما أن قطري يسعى إلى تقرير حقيقة مفادها: أن ظاهر الدنيا خير وباطنها شر؛ فقد ختم كلامه بقوله: (قطافها سلع). مشبها قطاف من يسعى إلى الدنيا، ويقبل عليها بالسلع*. ولئن اعتمد إيجاز القصر في المتضادات السابقة فإنه اختار جانبا من جوانب الحياة ليفصّل من خلاله في مظهر من مظاهر تقلب الدنيا، وعدم دوامها على حال، في قوله: (حيها بعرض موت/ صحيحها بعرض سقم/ منيعها بعرض اهتضام)؛ وذلك ليكشف القناع عن حقيقة الدنيا التي يسعى إلى تقريرها من خلال هذه المتضادات.

ومما سبق يتضح أنه أطال في رسم صورة منفرة للدنيا للتزهيد بها، بل للتنفير منها، وأوجز في رسم صورة الآخرة، مكتفيا بعبارات موجزة دالة من مثل قوله: (الحياة الدائمة وإلى خلود الأبد). وجمع بين الإطناب والإيجاز المتكئين على التضاد في سياق واحد للإفادة من دلالتيهما معا، فهو أطنب في وصف الدنيا، وأوجز في وصف الآخرة؛ لأنه يرى في واقع الحال الانسياق وراء الدنيا وملذاتها مع أنها فانية، والغفلة عن الآخرة مع أنها دائمة، هذا إذا كان المخاطب بهذا المتلقي العام، الإنسان حيثما كان، وفي أي زمان، أما إذا قصرنا الخطاب هنا على أتباعه من الخوراج، فيكون هدفه تحفيزهم وشحنهم للدفاع عن مبدئهم، ولو كلّفهم ذلك أغلى ما يملكون؛ لأنه لا يوجد ما يخسرونه إذا ما غادروا الحياة الدنيا؛ فإنها لا تستحق- من وجهة نظره- التمسك بها. ومع أن كلمة (الخلود) تدل على البقاء وعدم الزوال، إلا أنه أضافها إلى

الأبد زيادة في تقوية المعنى، وتقريره في ذهن المتلقي. ولا يخلو قوله السابق من تضاد محذوف الطرف، فإذا كانت الحياة الآخرة –كما وصف– الحياة الدائمة، وخلود الأبد؛ فإنه ضمنا يصف الدنيا بالفناء والزوال.

النتائج:

اتكأ قطري في خطبته على التضاد إدراكاً منه للقيمة التعبيرية لهذا الأسلوب؛ ولا نجانب الصواب إذا ما سميناها بـ"خطبة التضاد" لكثرة وروده فيها منذ بدايتها حتى نهايتها، وتنوعت أنماط التضاد التي استعان بها في سبيل إقناع المتلقي. وهو يدرك أنه يخاطب متلقين بمستويات مختلفة؛ لذا لا بد من التنويع في أساليب التعبير؛ ليضمن الإقناع والتأثير في أكبر عدد ممكن؛ لذا عبّر عن المعنى نفسه بعدة صور جمع بينها التضاد. تارة بالتصريح به وتارة بإضماره بترك الفرصة للمتلقي لإعادة إنتاج المضمر، مما يسهم في ترسيخ المعنى وتقويته.

و تميزت الخطبة بأنها ذات موضوع واحد وهدف واحد (ذم الدنيا)، وافتتح خطبته بالتحذير من الدنيا، وهذا من براعة الاستهلال بحيث أفصح عن مراده بمجرد أن واجه المتلقي بكلامه، واختتمها أيضا بالتحذير من الدنيا، بقوله: (فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله) وبفعله هذا يكون قد ضمّن كلامه "معنى تاما يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصد والنهاية"[٣٦]؛ لأنه يدرك أن الخاتمة هي آخر ما سيواجه المتلقي، وآخر ما سيرسخ في ذهنه، وما بين التحذير في مفتتح الخطبة والتحذير في خاتمتها، ما هو إلا أدلة وبراهين قدّمها لتدعم وجهة نظره في ذم الدنيا والتنفير منها.

ولا يفوتنا التذكير بأن قطري يخاطب في هذه الخطبة نوعين من المتلقين: المتلقي العام وهو الإنسان حيثما كان؛ ليقنعه بعدم الإقبال على الدنيا؛ لأنها زائلة. أما المتلقي الخاص وهو أتباعه من الخوراج الذين وجّه إليهم هذه الخطبة في سبيل إثارتهم وإقناعهم بزوال الدنيا؛ لذا بالغ في ذمها والتنفير منها، ولعل هذا يفسر شدة الحماس الذي عُرِف عن الخوراج، واستعدادهم للدفاع عن معتقدهم بكل ما أوتوا من قوة، ويقدمون على خوض معاركهم والدنيا وراء ظهورهم.

أما المصادر التي استمد منها خطبته فهي القرآن الكريم والسنة النبوية، والأمثلة من واقع الحياة التي التقت في نتيجتها، وهي التحذير من الدنيا، واستمد كذلك من عالم الطبيعة والنبات والطيور؛ لينوّع في أساليب الإقناع والتأثير في خطبته.

وكان حريصا على ختم كل مقطع من مقاطع خطبته بذكر آية من القرآن الكريم لتدعم وجهة نظره، وليثير الحماسة الدينية في نفوس المخاطبين.

خطبة قطري بن الفجاءة[٣٧]

صعِد قَطَريُّ بن الفُجاءة مِنبر الأزارقة - وهو أحد بني مازن بـن عمـرو بـن تمـيم- فحمد اللَّه وأثنى عليه وصلّى على نبيه ثم قال:

أمّا بعدُ فإني أُحَذِّركم الدُّنيا فإنَّها حُلوةٌ خَضِرة حُفّتْ بالشّهوات وراقت بالقليل وتحبّبت بالعاجلة وحُلِّيت بالآمال وتَزَيَّنت بالغُرور لا تدوم حَبْرتُها ولا تُؤمَن فجْعتُها غَرّارة ضَرّارة خوّانةٌ غدّارة حائلة زائلة نافدة بائدة أكّالة غوّالة بدلةٌ نَقَّالة لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنيَّةِ أهل الرّغبة فيها والرّضا عنها أن تكون كما قال اللَّه: " كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاه مِنَ السّماءِ فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوه الرّياحُ وَكَانَ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً". مع أنّ امرأً لم يكن منها في حَبْرة إلاّ أعقبتْه بعدهَا عَبْرة ولم يَلَقَ من سَرّائها بطناً إلاّ منحته من ضَرَّائها ظهراً ولم تَطُلَّه غَبْيَةُ رخَاءٍ إلاّ هَطَلَتْ عليه مُزنة بَلاء وحَرى إذا أضْحت له منتصرةً أن تُمْسِيَ له خاذلة متنكّرة وإنْ جانبٌ منها اعدَوْدَب واحلَوْلَى أمَرَّ عليه منها جانب وأوبَى وإن آتت امرأً من غَضَارتها ورفاهَتها نِعَماً أرهقته من نوائبها نِقَماً ولم يُمْسِ امرؤٌ منها في جَناحِ أمنٍ إلاّ أصبح منه على قوادِم خَوف غرَّارة غَرورٌ ما فيها فانيةٌ فانٍ مَن عليها لا خير في شيءٍ من زادها إلاّ التّقوى مَن أقلَّ منها استكثر مما يؤمِنُه ومَن استكثر منها استكثر مما يُوبِقهُ ويطيل حَزَنَه ويُبكي عينَه كم واثقٍ بها قد فجعَتْه وذي طُمَأنينةٍ إليها قد صرعتْه وذي اختيالٍ فيها قد خدَعته وكم من ذي أُبَّهةٍ فيها قد صَّرته حقيراً وذي نخوةٍ قد ردَّتْه ذليلاً وكم مِن ذي تاج قد كبَّته لليدين والفم سلطانُها دُوَل وعيشُها رَنَقٌ وعذبُها أُجَاجٌ وحُلوها صَبِرٌ وغذاؤها سِمام وأسبابُها رِمام وقِطافها سَلَعٌ حيُّها بعَرَض موتٍ وصحيحها بغَرَض سُقْم ومَنِيعها بعَرَضِ اهتضام مليكها مسلوب وعزيزُها مغلوب وسليمها منكوب وجامعها محروب مع أَنّ وراءَ ذلك سَكرات الموت وهَولَ المُطَّلَع والوقوفَ بين يَدي الحكَمِ العَدْل "لِيَجْزِيَ الذين أَساؤُوا بما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى". أَلَستمْ

في مساكِنِ مَن كان أطولَ منكم أعماراً وأوضَح آثاراً وأعَدّ عديداً وأكثَفَ جنوداً وأعند عُنُوداً: تعبَّدُوا الدُّنيا أيَّ تعبُّد وآثروها أيَّ إيثار وظَعَنوا عنها بالكَرْهِ والصَّغار فهل بَلَغكم أنَّ الدنيا سمحت لهم نَفْساً بفِدْية أو أغنَتْ عنهم فيما قد أهلكتهم بخَطْب بل قد أرهَقَتْهم بالفَوادح وضعضعتهم بالنّوائب وعَقَرتهم بالمصائب وقد رأيتم تنكُّرَها لمن دان لها وآثَرَها وأخلد إليها حين ظَعَنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المُسنَد هل زوّدتْهم إلاّ الشقاء وأحلّتْهم إلاّ الضّنْك أو نوَّرَت لهم إلاّ الظُّلمة أو أعقبتهم إلاّ الندامة فهذه تُؤْثرون أم عليها تَحرصون أم إليها تطمئنون يقول اللَّه: " مَنْ كَانَ يُريدُ الحَيَاةَ الدنيا وَزينَتها نُوَفِّ إلَيْهِمْ أعمالهم فِيها وهم فيها لا يُبْخَسُون أولئِك الّذين لَيْسَ لهم في الآخِرَة إلاّ النّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فيها وباطلٌ ما كانُوا يَعْلَمون " هود: ١٥ فبئست الدارُ لمن أقامَ فيها فاعلمُوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بُدَّ فإنما هي كما وصفها اللَّه باللعب واللّهو وقد قال اللَّه " أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيع آيَةً تَعْبَثُون وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِع لَعَلَّكُمْ تَخْلُدون ". وذكر الذين قالوا مَن أشدُّ منا قوّة. ثم قال:

حُمِلوا إلى قبورهم فلا يُدعَون رُكباناً وأُنزلوا فيها فلا يُدعَون ضِيفاناً وجُعِل لهم من الضَّريح أجنانٌ ومن التُّراب أكفان ومن الرُّفات جيران فهم جيرةٌ لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضَيماً إن أخصبوا لم يَفرحوا وإن أقحَطوا لم يَقنَطوا جميعٌ وهم آحادَ وجيرةٌ وهم أبعاد متناؤون لا يُزارون ولا يَزُورون حلماءُ قد ذهبت أضغانُهم وجُهَلاء قد ماتت أحقَادهم لا يُخشى فَجْعُهم إلا يُرجَى دفعُهم وكما قال جَلَّ وعَزّ: " فَتِلْكَ مَساكنُهمْ لم تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهم إلاّ قليلاً وكُنّا نحنُ الوارثين ". استبدَلُوا بظهور الأرض بطناً وبالسَّعةِ ضيقاً وبالأهل غُربة وبالنُّور ظلمة فجاؤوها كما فارقوها: حُفاة عُراةً فُرادَى غير أنّهم ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة وإلى خلود الأبد يقول اللَّه: " كَمَا بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُه وَعْداً عَلَيْنَا إنَّا كُنّا فاعِلِين " فاحذروا ما حذّركم اللَّه وانتفِعوا بمواعظه واعتصموا بحبله عَصَمنا اللَّه وإياكم بطاعته ورزقَنا وإياكم أداء حَقِّه.

الهوامش والتعليقات:

١- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٣، دار الجيل بيروت، ط٣، ٦/ ٧. والشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ١٩٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٦١.

٢- عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، اعتنى بنشره: إغناطيوس كراتشقوفسكي، مكتبة المثنى، بغداد، ٣٦.

٣- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٧-١٤٨.

٤- الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق أحمد صقر، ١٩٩١، دار المعارف، مصر، ط٤، ١/ ٢٩٢.

٥- ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٩٩٥، المكتبة العصرية، مصر، ٢/ ٢٦٥.

٦- ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،٢/ ١- ٣٥.

٧- ينظر على سبيل المثال: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ٦/ ٥-٧.

٨- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شعيتو، ١٩٨٧، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١/ ١٦٠.

٩- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ١٩٨٦، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ٢/ ٢٦٠.

١٠- الحافظ جلال الدين السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، دار الفكر، ١٠٥.

١١- ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر، ١٩٦٨، مكتبة العرفان، كربلاء، ٢/ ٣٧.

١٢- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، عني بطبعه وشرحه وتصحيحه أحمد عارف الزين، ١٣٣١هـ، مطبعة العرفان، صيدا، ٤٢.

١٣- ابن البناء المراكشي العددي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بنشقرون، ١٩٨٥، الرباط،١١١.

١٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ٥/ ٨٣.

١٥- العلوي اليمني، يحيى بن حمزة، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين، ١٩٩٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٣٣٠.

١٦- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ٨/ ٨٩.

١٧- السابق، ٨/ ١٤٢.

١٨- ابن منظور، لسان العرب (غرر).

١٩- ابن المعتز، البديع، ٣٦.

٢٠- إحسان عباس، شعر الخوارج، ١٩٧٤، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٥١.

٢١- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب البغا، ١٩٨٧، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ٤/ ١٧٦٠.

٢٢- الجرجاني، التعريفات، ٥٣.

٢٣- البخاري، الجامع الصحيح، ٤/ ١٦٩١.

٢٤- سامح عبد العزيز الرواشدة، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)، الجامعة الأردنية، م٢٢، ع٦، ١٩٩٥.

٢٥- علي عشري زايد، بناء القصيدة العربية الحديثة، ١٩٨١، دار العروبة، الكويت، ١٣٨.

٢٦- نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، م٦، ع٣و٤، إبريل – سبتمبير، ١٩٨٦،١٣٦، نقلا عن Kierkegaard (soren) The Concept of Irony. Translated by Lee. .M.Capel.Indiana Univ.Press

٢٧- نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، م٧، ع٣و٤، إبريل – سبتمبير، ١٩٨٧،١٣٣.

٢٨- السابق، ١٤٠.

٢٩- عبد القادر الرباعي، صور متن المفارقة في شعر عرار، قراءة من الداخل، ضمن كتاب بحوث عربية مهداة إلى الدكتور محمود السمرة، تحرير: د. حسين عطوان ود. محمد حور، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ٢٩٨.

٣٠- العلوي اليمني، كتاب الطراز، ٢٠٠.

٣١- الجرجاني، التعريفات، ١٧٥.

٣٢- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، ١٩٩٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٥١.

* القوادم: الريش في مقدم الجناح. لسان العرب (قدم)

٣٣- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تقديم عبد القادر الأرناؤوط، ١٩٩٨، دار الفيحاء، دمشق، ودار السلام، الرياض، ط٢، ٢/ ٥٤٤.

٣٤- الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤/ ٦٤٢.

٣٥- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٨٦، المكتبة العصرية، بيروت، ١٧٥.

* السلع: شجر مر. لسان العرب (سلع).

٣٦- العلوي اليمني، كتاب الطراز، ٤٨٥.

٣٧- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ١٩٩٨، مكتبة الخانجي، مصر، ط٧، ١٢٦-١٢٩.